مقدمة

المسلمون اليوم مختلفون مذاهب، وفرقا، ونحلا، ودولا. ومع ذلك فإن حبلا متينا يربط بينهم فهم يقدسون القرآن تقديسا لا يماثله تقديس أية ملة أخرى لكتابها. وهم يحبون النبى محمداً ﷺ بحميمية منقطعة النظير بين أية جماعة وقدوتها، وهم يتطلعون لمرجعية أخلاقية واحدة ويمارسون شعائر عبادية متماثلة. وهم يعظمون ماضيا ذهبيا مشتركا وهم يتشوقون لمستقبل أمجد وأفضل. ومهما كانت عوامل الفرقة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والجهوية بينهم فإن العوامل المشتركة المذكورة قد أورثتهم هوية مشتركة ووجدانا متحدا.

أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م فى نيويورك وواشنطن أجبرت المسلمين لوقفة مع الذات، ولفتت أنظار العالم نحوهم بصورة غير مسبوقة فى التاريخ الحديث.

وقفة المسلمين مع الذات أثمرت اجتهادات كثيرة غطى عليها صخب أقوال وأفعال الآخرين حول الإسلام والمسلمين.

بعض الكتاب والمفكرين من غير المسلمين أتحفوا هذا الاهتمام بالإسلام بكتابات نيرة عن الإسلام. كما أن بعضهم ـ وإن لم يبرر أحداث نيويورك وواشنطن الدامية ـ التمس لها تفسيرا عقلانيا. ولكن دموية الأحداث، وجراح ضحاياها من المدنيين الأبرياء جعلت صوت الشحناء والبغضاء يعلو ولا يعلى عليه.

هذا الصوت عبّر عنه كثيرون أمثال: برنارد لويس[1]، رالف بيترز، وماليز روثفن، وڤيكتور هانسون. قالوا: المسلمون يعادون الغرب ويكرهونه؛ لأنه يمثل حضارة ناجحة حافلة بالإنجازات وغالبة. بينما حضارة الإسلام حضارة يائسة بائسة آفلة. «إن غضبهم موجه لذواتنا لا لما فعلنا أو لم نفعل» على حد تعبير هانسون.

هذه مداخلات علماء ومفكرين، ولكن هنالك تعليقات ثيوقراطية أشد مرارة وإدانة. الولايات المتحدة أكثر الدول الغربية تدينا بدليل البيانات التى تقول: إن نسبة الأمريكيين الذين يعتقدون فى وجود الله ٩٥٪ بينما فى دول الاتحاد الأوروبى «باستثناء أيرلندا» النسبة هى ٤٥٪، والمسيحية كسائر الديانات شهدت انتعاشا أصوليا منذ الثمانينات من القرن العشرين. ومن نتائج هذا الانتعاش أن المسيحية الإنجيلية ـ أى التى تقول بتفسير حرفى للكتاب المقدس ـ شهدت حماسة متجددة وصار كثير من قادتها نجوما فى سماء الإعلام الأمريكى. كثير من هؤلاء قادوا موجة تلطيخ الإسلام بوقاحة فجة. قال بات روبنسون: هتلر كان سيئا، ولكن ما يفعله المسلمون باليهود أسوأ! ووصف القس جيرى فالويل النبى محمداً ﷺ بالإرهابى. ووصف القس فرانكلين جراهام الإسلام بأنه دين خبيث.

كانت هذه الأوصاف معهودة فى الماضى حتى بددتها كتابات مستشرقين منصفين. ولكن بعد الأحداث الأخيرة عاد كثيرون إلى الإبنة القديمة.

إن للغضبة التى عبر عنها بعض المسلمين تفاسير موضوعية

أولا: خاضت الدول الأطلسية الحرب الأطلسية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨م»: ولدى نهاية الحرب أبرموا اتفاقية فرساى، وفرضوا بموجبها واقعا دوليا جديدا أخضعوه لمصلحة الدول الاستعمارية المنتصرة فى الحرب. كان وضع البلدان الإسلامية العثمانية، ووضع ألمانيا القيصرية فى سلام فرساى مهينا. والدليل على ذلك أن يان سمتس رئيس وزراء جنوب إفريقيا فى ذلك الحين قال للويد چورچ رئيس وزراء بريطانيا: إن شروط هذا السلام إذا فرضت على المهزومين فإنها سوف تبذر بذور حرب بعد جيل من الزمان. واقتنع لويد چورچ بضرورة تعديل شروط السلام، ولكن الأغلبية البرلمانية البريطانية حالت دون ذلك. أما القسمة العربية فى تلك المظلمة فقد كانت جائرة، فنالوا ما نالوا على يد سايكس/ بيكو ووعد بلفور.

ثانيا: خاضت الدول الأطلسية حربا ثانية «١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م» وبعدها وضعت ترتيبات نظام عالمى جديد، من أهم مبادئه مبدأ تقرير المصير للشعوب؛ مما أدى إلى تصفية الإمبراطوريات الأوروبية.

ولكن فى كثير من الأحوال بقيت بؤر كثيرة ضحاياها من المسلمين. وحتى فى حالة إقدام الأمم المتحدة على اتخاذ قرارات لصالح هؤلاء الضحايا ـ كما فى حالة فلسطين وكشمير ـ فإن القرارات بقيت حبرا على ورق.

ثالثا: بعد نهاية الحرب العالمية الثالثة أى الحرب الباردة (١٩٤٨ـ١٩٨٩م) احتلت الولايات المتحدة مركزا فريدا فى السياسة الدولية. كانت السياسة الدولية أثناء الحرب الباردة تقوم على التوازن، ولكنها بعدها صارت تقوم على التفرد الأمريكى. قادة التيار المستنير فى الولايات المتحدة قالوا: إن لأمريكا دورا كبيرا فى بناء نظام دولى قائم على القانون والعدالة، وإن التطورات التكنولوجية الحديثة تعزز من فرص بناء عالم التكافل والقانون، فأفول الاتحاد السوفيتى، والعولمة، والقفزات التقنية، سيما فى عالم الاتصالات والتحول الديمقراطى فى العالم، وجدوى اقتصاد السوق الحر، كلها عوامل تصب فى هذا الاتجاه، وإن الظروف تؤهل أمريكا لقيادة العالم، على أن القيادة لا تعنى الهيمنة؛ لأن القيادة تشمل القدوة، والتشاور والتنسيق مع الآخرين؛ بينما الهيمنة تقوم على الإملاء..

هذه المفاهيم وما قد تفضى إليه من عالم محكوم بالقانون الدولى وجدت رفضا تاما من تيار آخر أصدر تحليلات ورؤى سُميت: مشروع القرن الأمريكى الجديد.. أى مشروع الهيمنة الأمريكية.

هذا التيار اعتبر أن إخضاع الولايات المتحدة للقوانين الدولية يهدد السيادة الأمريكية ويضر بالأمن القومى الأمريكى.

دعاة هذا التيار كوّنوا لجنة وقّعت على مشروع القرن الأمريكى الجديد. وفى نوفمبر ٢٠٠٠م انتخب الشعب الأمريكى جورج بوش رئيسا له فاصطحب معه إلى السلطة عددا من أعضاء مشروع القرن الأمريكى الجديد أمثال: ديك تشينى، وچون بولتون، وريتشارد بيرل، وبول ولفويتز ... وغيرهم. هؤلاء ينتمون لمدرسة أستاذها ليو شتراوس، الوافد من ألمانيا إلى أمريكا، والذى صار أستاذ الفلسفة فى جامعة شيكاغو فى الخمسينيات من القرن العشرين. آراء شتراوس معطونة فى الفكر الفاشستى الأوروبى وبعيدة كل البعد عن المصادر الليبرالية الأمريكية التى يمثلها فى الماضى آباء الدستور الأمريكى، ويمثلها قادة أمريكيون معروفون مثل: ويلسون، وروزفلت،

وكندى وغيرهم. المحافظون الجدد ـ والتسمية الأصح الراديكاليون اليمينيون ـ يمثلون انقلابا فكريا سياسيا واكبه على الصعيد الدينى تغلب المسيحية الإنجيلية على الاتجاهات البروتستانتية الليبرالية المعهودة فى الولايات المتحدة الأمريكية. التياران: اليمينى الراديكالى والمسيحى الإنجيلى تدفقا فى الحزب الجمهورى الأمريكى، وكلاهما ـ لأسباب سياسية ودينية ـ تحالفا مع الأيديولوچية الصهيونية.

كان كثيرون فى إسرائيل يخشون أن نهاية الاتحاد السوفيتى قد تجعل أمريكا زاهدة فى العلاقة الاستراتيچية الخاصة مع إسرائيل. فقد كانت تلك العلاقة ضرورية فى الحرب الباردة. ولكن ما فائدتها بعد الحرب الباردة؟ ومنذ نهاية الحرب الباردة صار كثيرون فى إسرائيل يرددون مقولة إن العدو الاستراتيچى القادم للحضارة الغربية هو الإسلام أو الأصولية الإسلامية. وهى فكرة رددها أمين عام حلف الناتو، وقال بها كثير من الغربيين. ولكن قبل بروز هذه الاتجاهات تغلب تشدد الرئيس الأمريكى رولاند ريجان على ليبرالية الرئيس الأمريكى چيمى كارتر[٢]. وفى عهد ريجان[٣] احتاج التشدد الأمريكى للحليف الجهادى الإسلامى فى أفغانستان. واستطاع المجاهدون بدعم أمريكى وعربى وإسلامى أن يجبروا الاتحاد السوفيتى على الجلاء من أفغانستان. اكتسب هؤلاء بطولة وخبرة وصار لهم ـ لا سيما لتنظيم «القاعدة» ـ وزن كبير وقدرات قتالية فائقة. ولكن الأحزاب الجهادية التى استولت على حكم أفغانستان بعد انهيار النظام العميل لم يستطيعوا أن يحكموا البلاد بما يحقق أمنها واستقرارها. فاندفعت حركة تعبوية قتالية بدعم پاكستانى واستطاعت أن تستولى على أكثر من ٨٠٪ من أراضى أفغانستان وأن تحقق قدرا من الأمن والنظام.

الولايات المتحدة تقبلت نظام طالبان لأنه ترياق مضاد لإيران، ولأنه حقق استقرارا يمكن من مد أنابيب بترول بحر قزوين، ولأنه حليف پاكستان حليف أمريكا فى جنوب آسيا. ولكن هذه العلاقات بين الجهاديين والولايات المتحدة كانت خالية من أية أبعاد استراتيچية؛ لذلك احتفظ كل طرف بهويته ونظرته للعالم، وعندما اختفى العدو المشترك اتجه كل نحو أجندته الخاصة به. لذلك لم يجد الأمريكيون ـ لا سيما اليمين الراديكالى المنتصر فى انتخابات عام ٢٠٠٠م ـ حاجة لأية مراجعات لسياساتهم نحو العالم الإسلامى، بل واصلوا علاقاتهم مع نظم تقهر شعوبها وواصلوا تحالفهم مع

اليمين الإسرائيلى الصاعد المتشدد. كما أن حلفاء الأمس من الجهاديين تفاخروا بانتصارهم على دولة «الإلحاد» العظمى واتجهوا لمنازلة دولة «المجون» العظمى الظالمة والحامية للظالمين.

هجوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م طور أسلوب مواجهة الجهاديين للولايات المتحدة، ونقله من مناوشات إلى إعلان حرب. وأعطى تيار اليمين الراديكالى فرصته الذهبية للانطلاق من حق الدفاع عن النفس المشروع إلى الأحادية الاستباقية فى إدارة الشؤون الدولية فى الطريق إلى بسط الهيمنة الأمريكية المنشودة أصلا.

قبل هجوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م على نيويورك وواشنطن، كان الأمريكيون يعتبرون أنفسهم فى حصن حصين. وانطلقت أصوات حتى من بين حلفاء أمريكا تبدى قلقا من الهيمنة الأمريكية. على حد تعبير «درشبيجل» صحيفة ألمانيا الأولى: إن العولمة ترفع إعلانا مكتوبا عليه: صنع فى أمريكا!.

وعندما وقع الهجوم التف الشعب الأمريكى حول رئيسه؛ فحوله فى لمح البصر من رئيس مشكوك فى انتخابه إلى زعيم قومى. والتفت أغلبية العالم حول الولايات المتحدة. وعلى حد تعبير «لوموند» صحيفة فرنسا الأولى الناقدة غالبا للسياسات الأمريكية: «إننا جميعا أمريكيون»!. ولكن آخرين فى أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية أضمروا شماتة لما لحق بالمتغلب (الفتوة).

الحرب الأمريكية على أفغانستان التى اندلعت فى ٧/ ١٠/ ٢٠٠١م وجدت سندا عالميا كبيرا دفاعا عن النفس. طالبان والقاعدة اختارا ألا يصمدا فى الحرب، وبسرعة أخليا مواقعهما وذابا فى أفغانستان والحدود الأفغانية الباكستانية. الحملة العسكرية الأمريكية نجحت فى أهدافها العسكرية ولكن بسبب عدم التحضير الكافى لم تكن حاسمة، بل ارتكبت الولايات المتحدة أخطاءً بدّدت السند العالمى العريض:

أ ـ الحرب كانت عالية التقنية وركزت على قوة النيران والقوة التدميرية؛ لذلك أصابت عددا كبيرا من المدنيين الأبرياء.

ب ـ التعامل مع أسرى الحرب بصورة لا إنسانية ومناقضة للقانون الدولى، باعتبار أن هؤلاء الأسرى «إرهابيون» لا تنطبق عليهم معاهدة چنيف الرابعة الخاصة بأسرى الحرب.

جـ ـ تحت مظلة الحرب الأمريكية الشاملة على «الإرهاب» انطلقت إسرائيل تصفى حساباتها مع الفلسطينيين، باعتبار أن المقاومة للاحتلال إرهابا. ومهما ارتكبت من فظائع حماها حق النقض الأمريكى من مساءلة مجلس الأمن الدولى.

د ـ حبس عدد من «الجهاديين»(*) فى سجون جوانتينامو (٦٠٠ شخص) لمدة عامين ونصف، وعوملوا معاملة مذلة، وحرموا من حقهم فى الاحتكام للعدالة الأمريكية، وموس معهم تدنيس المصاحف ضغطا نفسيا عليهم. قال لورد ستين القاضى وعضو مجلس اللوردات البريطانى: «إن حبسهم بهذه الطريقة وصمة عار للعدالة الأمريكية، وهو مناقض للقانون الدولى».

وبعد عام من الهجوم على نيويورك وواشنطن أى فى سبتمبر ٢٠٠٢م أعلنت الولايات المتحدة بيانا عن استراتيجية الأمن القومى الأمريكى. أهم ما فيها: **حق شن حرب شاملة على الإرهاب بعون دولى أو بدونه، والإقدام على الهجوم الوقائى المنفرد، وعدم السماح لأية قوة أخرى فى العالم أن تتأهل لتنافس الولايات المتحدة.**

كان تيار اليمين الراديكالى الأمريكى مصمما على غزو العراق؛ لأنهم يرون عدم السماح لأية دولة فى المنطقة أن تقدر على تحدى الولايات المتحدة؛ ولأنهم يعتبرون السيطرة على منابع النفط تدعم الهيمنة الأمريكية العالمية، ولكنهم كانوا يبحثون عن مبرر كاف للغزو، وفى النهاية كان المبرر هو أن العراق يملك أسلحة دمار شامل ويخفيها عن المفتشين الدوليين، وأنه يرعى الإرهاب متصلا بالقاعدة.. بموجب هذه المبررات شنت الحرب على العراق خارج نطاق الشرعية الدولية.

وبعد نهاية الحرب الناجحة عسكريا وسقوط النظام الحاكم اتضح أن الولايات المتحدة وحلفاءها طبخوا المعلومات لتبرير الحرب، وأن البلاد لا تملك أسلحة دمار شامل، وأنه لا توجد أية صلة بين النظام العراقى المخلوع وتنظيم القاعدة.

الهجوم الأمريكى العسكرى على أفغانستان، والقاعدة، والعراق، حقق نصرًا عسكريا ميدانيا حاسمًا، ولكن اتضح أن القوات المعنية قررت ألا تصمد فى المواجهة، بل تنسحب لتواصل حرب استنزاف. كانت القوات المسلحة الأمريكية قادرة دون

(*) أدعوهم الجهاديين لأنه قتال بموجب فتوى ذاتية لا تنطبق عليها شروط الجهاد؛ لذلك فهم جهاديون لا مجاهدون.

صعوبة على هزيمة القوات المسلحة الأفغانية والعراقية. ولكن التعامل مع الأوضاع بعد هزيمة القوات النظامية يتطلب إحاطة بالواقع السياسى والاجتماعى فى أفغانستان والعراق. هذه الإحاطة كانت غائبة، والنتيجة أن الحرب بدأت يوم أن أعلنت نهايتها.

قال الجنرال جون أبى زيد قائد القيادة المركزية الأمريكية فى نوفمبر ٢٠٠٣م: «إن المواجهات العسكرية التى نواجهها فى أفغانستان تماثل عدد وضراوة ما نواجه فى العراق»[٤].

وبصرف النظر عن المساجلات العسكرية فإن مقدرة طالبان والقاعدة على الصمود لكل هذا الوقت أكسبتهما شعبية واسعة. ومهما كانت تحفظات الآخرين على أساليبهما فإن تعبيرهما عن تظلمات المسلمين فى مناطق كثيرة زاد من ذلك الكسب. قال آدم جارفنكل: فى استطلاع أجرته الاستخبارات السعودية بمشاركة أمريكية اتضح أن ٩٥٪ من السعوديين ما بين سن ٢٥ وسن ٤١ عاما يتعاطفون مع بن لادن.

ثورة الاتصالات والحاسوب فتحت مجالا جديدا للأفراد والجماعات غير الحكومية حتى صارت لهم قدرات جديدة. ففى ١٩٩٧م استطاعت جودى وليامز الناشطة الشعبية فى فيرمونت أن تنظم عبر الإنترنت عملا أبرمت بموجبه اتفاقية لمنع الألغام الفردية، رغم معارضة البنتاجون، أقوى ذراع حكومى لأقوى حكومة.

وفى ١٩٩٩م استطاعت ١٥٠٠ من الجماعات والأفراد أن تنظم حشدا فى سياتيل، وعرقلوا اجتماعا مهما لمنظمة التجارة العالمية.. هذا المجهود خططوه ونفذوه عبر الإنترنت.

هذه الإمكانات استخدمها تنظيم القاعدة كوسيلة اتصالات، ودعاية، وكوسيلة تدريب. هذا الاستخدام الدعائى الفعال استمال رأيا عاما واسعا فى العالم الإسلامى قال عنه بول إيدل ـ أحد خبراء الإنترنت ـ: «صار الحديث العلنى ضد الجهاديين يتطلب شجاعة بالغة. إن الرأى العام الإسلامى صار بفضل ذلك فى غاية التشدد»، وقال جوناثان ستيفنسن: «بفضل تقدم التكنولوجيا واستخداماتها لم تعد معسكرات التدريب الأفغانية ضرورية».

الصمود القتالى، والتصدى، والدعاية الواسعة فى غياب أية مرافعات مجدية بوسائل أخرى مكنت الجهاديين من الحصول على تأييد واسع لرأيهم وأساليبهم، بل شجعهم هذا التأييد للتطلع لولاية الأمر فى العالم الإسلامى، ورسم معالم خلافة إلكترونية تداعب خيال المسلمين.

جاء فى تقرير جورج تنت مدير الاستخبارات المركزية الأمريكية أمام لجنة مجلس الشيوخ فى ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٤م الآتى: «لقد حققنا انتصارات على القاعدة. ولكن نمو المشاعر العدائية لأمريكا لا سيما فى أوساط السُنة، وانتشار أساليب بن لادن التخريبية عبر وسائل غير تقليدية، يؤكدان أن تحديا خطيرا يواجهنا سواء استمر وجود القاعدة أو اختفت». التقرير أوضح أن أمريكا حققت نصرا تكتيكيا على القاعدة. ولكنها تخسر الحرب الاستراتيجية؛ لأن التعبئة المضادة لأمريكا فى العالم الإسلامى ـ لا سيما عالم السنة ـ وتجارب بن لادن القتالية التى انتشرت فى أماكن كثيرة «يمدان المواجهة ضدنا بوقود مستمر» على حد تعبيره. هذا الزخم المعادى للولايات المتحدة اكتسب قوة من خلط السياسة الأمريكية بين المقاومة المشروعة ضد الاحتلال، وأعمال العنف العشوائى لأغراض سياسية واعتبارها «إرهابا».

وإذا انفرد الجهاديون بالتصدى لرفع الظلم عن المسلمين فإن صوتهم سيكون الأعلى فى العالم، بل وسوف يستقطبون أعدادا كبيرة من شباب الأمة الإسلامية للنظام المستقبلى الذى يرونه. بالإضافة لذلك فإن مواجهتهم للقوى الدولية بأسلوب استباحة دماء مواطنيها سوف يجر للأمة الإسلامية التى تساكن أهل الغرب فى بلدانهم والتى تسكن العالم الإسلامى الجغرافى عداءً دوليا واسع النطاق.

من النتائج غير المباشرة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، إطلاق العنان لمفكرين وكتاب ودعاة فى العالم العربى والإسلامى عامة والعالم العربى، خاصة العالم المستقر فى قاع العالم الإسلامى ـ والذى صار مضرب المثل فى الضياع حتى أن رالف بيترز قال: «ينبغى أن تعتبر البلدان العربية من سكان العالم الإسلامى شعوبا عاجزة عن التحول البناء»[٥] ـ إطلاق العنان لهم لبحث أسباب هذا الجمود والتخطيط للنهضة.

من الاجتهادات الهامة فى هذا الصدد تقارير التنمية الإنسانية العربية للأعوام ٢٠٠٢م، ٢٠٠٣م، ٢٠٠٤م، ركز التقرير الأول «٢٠٠٢م» على وجود ثلاث نواقص تعوق بناء التنمية الإنسانية العربية هى: الحرية ـ المعرفة ـ و«تمكين المرأة». التقرير الثانى «٢٠٠٣م» ركز على مسألة نقص المعرفة وحدد خمسة مطالب:

- إطلاق الحريات العامة وضمانها هو الحكم الصالح.
- نشر التعليم فى كل مجالاته.
- تعميم التطور والبحث التقنى.
- التحول نحو نمط إنتاج المعرفة.
- تأسيس نموذج معرفى عربى عام منفتح ومستنير يقوم على العودة لصحيح الدين، وتخليصه من التوظيف المغرض، وحفز الاجتهاد وتكريمه، والنهوض باللغة العربية، واستحضار إضاءات التراث المعرفى العربى، وإثراء التنوع الثقافى داخل الأمة ودعمه والاحتفاء به، والانفتاح على الثقافات الإنسانية الأخرى.

التقرير الثالث «٢٠٠٤» ركز على قضايا الإصلاح السياسى وانتقد الواقع السياسى الحالى نقدًا صريحًا وحدد شروط الإصلاح السياسى المطلوب.

هذه التقارير أضاءت شموعًا فى الرأى العربى والإسلامى والعالمى. ومع أن مؤلفيها من الخبراء الدوليين العرب إلا أن تمثيلهم كان ناقصًا وغير متجانس، لذلك نجدهم أحيانا يذكرون أهمية العوامل الثقافية فى الانحطاط، وأحيانا يستخفون بها إذ قالوا: «السبب الرئيسى لإخفاق عملية التحول الديمقراطى فى العديد من الأقطار العربية لا يرجع لمسائل ثقافية».

أهمية تقرير عام ٢٠٠٢م أنه جاء فى وقت أجبرت فيه حوادث الحادى عشر من سبتمبر المفكرين المسلمين لوقفة مع الذات: هل هذا الذى حدث منا؟ هل يمثلنا؟ ما هو موقفنا منه؟. كما جاء فى وقت تقاطرت فيه المبادرات الخارجية حول الإسلام والمسلمين.

إن الإدارة الأمريكية تتساءل عن أسباب هذا العداء والعنف للعمل على إزالتها. كثير من الكتّاب تناولوا تلك الأسباب ذاكرين تظلم المسلمين، ودور السياسات الأمريكية فى ذلك الظلم، وعدوانية السياسات الإسرائيلية فى المنطقة، وحماية أمريكا لها. ولكن ها هو التقرير يركز على أن التطرف والإرهاب يعودان لأسباب داخلية متعلقة بالافتقار للديمقراطية، وبنقص معدلات العدالة الاجتماعية، وضيق آفاق الحياة أمام أجيال الشباب.

من هذا المنطق انطلق مشروع الشرق الأوسط الكبير وفحواه: «طالما تزايد عدد الأفراد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية فإن المنطقة ستشهد زيادة فى التطرف، والإرهاب، والجريمة الدولية، والهجرة غير المشروعة».

لا أحد ينكر بسطة الطغيان فى المنطقة المعنية، ولا أحد ينكر المطالب الشعبية الملحة فى المنطقة منادية بالديمقراطية قبل وبعد حوادث الحادى عشر من سبتمبر، ولكن ينبغى ألا ننسى أن عدوانية السياسات الأمريكية وتحالفها مع العدوان الإسرائيلى يشكلان أسبابا هامة للتطرف والإرهاب فى المنطقة.

تناول كثير من الكتاب تحليل السياسة الأمريكية. ويرى چوزيف نای مؤلف كتاب «**تناقضات القوة الأمريكية**» أن لأميركا قدرات فريدة. ولكن إذا أصرت على سلوك انفرادى، واتسمت سياساتها بالغطرسة والأحادية، فإنها سوف تدفع الآخرين من دول وجماعات غير حكومية للعمل بوسائلها ضدها.

المراجعة المطلوبة فى منطقة الشرق الأوسط لجعل السياسة الأمريكية ركنا فى استقرار المنطقة:

تتطلب السياسة الأمريكية المراجعة فى جوانب عديدة أهمها خمسة هى:

- البترول سلعة استراتيجية ولها أهميتها الصناعية، والزراعية، والتجارية والعسكرية. وسياسة السيطرة على منابع البترول ـ وبالتالى السيطرة العالمية ـ تشكل توجها إمبرياليا يتناقض مع مصالح الآخرين. والنهج الصحيح هو أن يخضع موضوع البترول هذا لإرادة منتجيه، على أن يدخلوا فى تفاهم استراتيجى مع المستهلكين للبترول، وأن تتاح الفرصة لآلية السوق أن تحكم ظروف الإنتاج والاستهلاك.

- مراجعة العلاقة مع إسرائيل للكف عن استخدامها حصان طروادة فى المنطقة .
- الكف عن استخدام النظم الحاكمة فى المنطقة كشرطى حراسة للمصالح الأمريكية فى المنطقة على حساب الشعوب .
- إيجاد سياسة مبدئية خالية من ازدواج المعايير لاحتواء أسلحة الدمار الشامل .
- جلاء القوات الأمريكية من المنطقة على أساس مفاهيم جديدة للأمن الإقليمى والدولى ، مفاهيم تحترم الشرعية الدولية وتؤيدها شعوب المنطقة .

إن التوتر العربى الإسرائيلى من مصادر التطرف والعنف فى المنطقة ، وهو قابل للحل بل والتطبيع ضمن المبادئ الخمسة الآتية :

- قيام دولتين متعايشتين سلميا بين النهر «نهر الأردن» والبحر الأبيض المتوسط .
- أن يكون للعرب داخل الوطن العبرى حقوق مواطنة متساوية .
- تطبيع مواطنة اليهود المتساوية فى البلاد العربية وفى سائر أنحاء العالم .
- تصفية المستوطنات اليهودية المغروسة فى المناطق المحتلة عام ١٩٦٧م .
- كفالة حقوق اللاجئين الفلسطينيين بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤ .

مشروع الثمانية الكبار

منذ يوليو ٢٠٠٤ م تحول مشروع الشرق الأوسط الكبير إلى مشروع « الثمانية الكبار» . . المآخذ الهامة على هذا المشروع هى :

أ ـ إنه انتقى أسبابا معينة للتطرف والإرهاب وترك أسبابا أخرى أكثر أهمية .

ب ـ إنه ركز على فضاء جغرافى سماه الشرق الأوسط ، بينما المنطقة تحركها انتماءات أخرى ثقافية كالإسلام ، والعروبة ، ولا يمكن القفز فوقها .

جـ ـ كما أن المرجعية الجغرافية يودى بجدواها الشذوذ الإسرائيلى الذى لا يمكن تخطيه .

الشراكة من أجل المستقبل

فى مايو ٢٠٠٤م عقد مؤتمر القمة العربى الذى أطلق مبادرة: مسيرة التطور والتحديث، وأعقب ذلك الملتقى الجامع بين الحكومات الثمان والدول العربية فكونوا ما سُمى: الشراكة من أجل المستقبل.

هذه الشراكة عقدت فى غياب كامل للمجتمع السياسى والمدنى العربى صاحب المصلحة الحقيقية فى التحول الديمقراطى. كثير من الدول العربية تعلن الرغبة فى الإصلاح السياسى، ولكنها لا تدفع استحقاقات هذا الإعلان.

يحلو لكثير من الدول أن تقول: إن الإصلاح ينبع من الداخل. ولكن أجهزة الأمن تقمع أصوات الديمقراطية فى الداخل، وأجهزة الإعلام الرسمى تعمل بكل طاقتها لتزييف إرادة التحول الديمقراطى.

النظم التسلطية فى العالم الإسلامى عامة وفى العالم العربى خاصة تعانى الآن من أزمة حقيقية. وتحاول امتصاص الأزمة بإجراءات إصلاحية زخرفية. والمؤسف أن الشراكة من أجل المستقبل تساعد على هذه الحيل.

المطلوب أن تنتعش القوى السياسية والاجتماعية المنظمة القادرة على التعبئة الشعبية الداخلية والتعبئة الخارجية للضغط من أجل الإصلاح الحقيقى. هؤلاء هم أدوات قوة الدفع الحقيقية من أجل التحول الديمقراطى.

المؤسف أن الولايات المتحدة لا تقيم لهذه القوى وزنا، وتكتفى ببحث مشروعات الإصلاح السياسى مع حكومات لا تتعامل مع المشروعات إلا لإفراغها من محتواها، أو تتعامل مع منظمات مجتمع مدنى أجنبية الإرادة.

إن كثيرا من منظمات المجتمع المدنى أسماء على غير مسمى؛ لأنها واجهات لحكومات، أو لجهات أجنبية، أو خاضعة لإدارة فردية لا تقيم للمشاركة وزنا. هذه التشوهات سوف تجرفها الإصلاحات الديمقراطية القادمة.

الموقف الأمريكى من الإصلاح الديمقراطى ما زال هشا، والدليل على ذلك متوافر فى التصرفات الأمريكية فى السودان. عندما زار السيد كولن باول السودان فى يوليه ٢٠٠٤م للاطلاع على أحوال دارفور التقى بالجهات الرسمية، وطلب لقاء ممثلى

القبائل، وأعرض تماما عن مقابلة الأحزاب السياسية، ومنظمات المجتمع المدنى، اللبنات الحقيقية للممارسة الديمقراطية!.

ما زالت الإدارة الأمريكية ترفع شعارات الديمقراطية، ولكنها لا تقيم وزنا فى الواقع إلا للجهات الرسمية، أو الفصائل المسلحة، أو التكوينات القبلية!!

هذا النهج يأتى بنتائج عكسية لقضية الإصلاح السياسى فى المنطقة. كذلك وبالنظر للكراهية التى لصقت بالولايات المتحدة جرّاء سياساتها الخاطئة وتحالفاتها مع الظلمة والمعتدين فإن هذه السلبيات تؤذى قضية الإصلاح.

الدافع الأمريكى مهم للدفع بالإصلاح للأمام، ولكن هذا يوجب مراجعة السياسات الأمريكية فى المنطقة للتخلى عن الظلم والعدوان، وازدواجية المعايير، والعمل على أن تكون الشراكة من أجل المستقبل ثلاثية، تشمل: الدول الثمان، والدول العربية، والمجتمع السياسى والمدنى العربى.

لا ينبغى أن نعتبر السياسة الأمريكية غير قابلة للتغيير، فما دامت هناك حرية فإن السياسات الفاشلة سوف تكشف وتنتقد ويمكن أن يعقب ذلك الإصلاح.

قال الأستاذ مالك بن نبى فى الستينيات: «إنه يتوقع أفول العملاقين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى». وكان تعليقى أن هذا الأفول منتظر للاتحاد السوفيتى لغياب الحرية ولغياب النقد. والنقد كما قال عمانويل كانط هو أفضل وسيلة للبناء اكتشفها الإنسان، مرددا قول عمر (رضي الله عنه): «رحم الله امرءًا أهدى إلىَّ عيوبى». أما الولايات المتحدة فإن حرية النقد كفيلة بإنقاذها من التهلكة. هذا الفهم عززه سخاروف ـ أبو القنبلة النووية السوفيتية ـ الذى نشر فى السبعينيات كتابا بعنوان: «بلادى والعالم»، قال فيه: «إن الإصلاحات العظيمة التى حققها الاتحاد السوفيتى لن تجدى فى التنافس مع الغرب لغياب الحرية، فالحرية هى سر التقدم والنجاح».

اتخاذ القرار فى الولايات المتحدة ليس أحاديًا، ويتعرض القرار للرأى والرأى الآخر، والنقد والمساءلة هناك أمر عادى.

وفى نطاق السياسة الأمريكية نحو السودان كانت الولايات المتحدة فى أواخر التسعينيات من القرن الماضى تقوم على احتواء وعزل النظام السودانى. ولكن هذه

السياسة روجعت فى مطلع القرن الجديد. وعندما انفجرت أزمة دارفور فى عام ٢٠٠٢م كان اتجاه السياسة الأمريكية فى البداية أن يترك أمر دارفور تعالجه الحكومة السودانية، وأن تركز المجهودات الدولية على قضية السلام الرئيسية فى السودان ومفاوضات الحكومة والحركة الشعبية. ولكن الرأى العام العالمى أجبر الإدارة الأمريكية على التراجع. والآن نشهد أن الولايات المتحدة مالت بكل وزنها لدعم اتفاقية السلام السودانية التى وقعت بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية باعتبارها اتفاقية السلام الشامل. هذه الاتفاقية لن تحقق سلاما شاملا، ونظام الحكم الذى سوف تقيمه سيكون أقرب إلى شمولية ذات رأسين. القوى الشعبية السودانية والقوى المستنيرة الدولية ستعملان لجعل السلام عادلا وشاملا والتحول الديمقراطى حقيقيا. هذه المواقف سوف تختبر صدق الموقف الأمريكى من الديمقراطية.

إن واقعنا السياسى يعانى من تراث الاستبداد القديم الذى عبر عنه كثير من الفقهاء على حد مقولة ابن حجر العسقلانى: «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه».

هذا التراث القديم خلف ذهنية قابلة للاستبداد، وفى العصر الحديث استصحب الطغاة أساليب القمع المستمدة من الفاشستية الحديثة، ومن التطبيق البيروقراطى للماركسية.

الثقافة الغالبة على مجتمعاتنا الإسلامية هى التى جعلت الاستبداد ممكنا، بل مشروعا. إنها ثقافة طردت الحرية، وغيبت العقل البرهانى، وجعلت الاجتهاد فى الدين مستحيلا.

ثقافتنا السائدة جعلت اجتهادات السابقين ـ وهى اجتهادات إنسانية ـ مقدسة بقدسية نصوص الوحى. هذا معناه أننا جعلنا الحاضر والمستقبل حبيسا فى الماضى.

فإن أبقينا على هذا الواقع الثقافى لا يرجى أن نحقق إصلاحًا سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا؛ لأن كافة هذه الإصلاحات سوف تصطدم بالحائط الثقافى.

الفكرة التى قدست اجتهادات الأقدمين ترى أنها ـ أى الاجتهادات ـ قد انطلقت من نصوص الوحى، وبموجب المنطق الصورى قياسًا وإجماعًا فصَّلت للخلف ثوبا عريضا

صالحا لكل زمان ومكان؛ لأنه يمثل إرادة الله لخلقه. . الإرادة التى نصت عليها مفردات الوحى ووسعتها اجتهادات السلف. هذه الفكرة متناقضة حتى مع فكر أئمة الاجتهاد أنفسهم. وإذا قارنا بين تسامح وتواضع الأئمة الأربعة وبين تحزب وتشدد من جاء بعدهم من مقلدين لهم لرسمنا صورة حية للانتقال من الحركة إلى الركود. هؤلاء الأئمة الذين صارت اجتهاداتهم أساسًا للتمذهب والتحزب لم يكن التعصب لفتواهم مقصودهم، فقد أفتى الإمام أبو حنيفة(*) يوما، فقال له أحد الحاضرين: «أهذا هو الحق الذى لا شك فيه؟» فقال له الإمام: «وقد يكون الباطل الذى لا شك فيه». وعندما همَّ الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بفرض الموطأ على الأمصار (يجعله الأساس الرسمى للأحكام)، قال له الإمام مالك مؤلف الموطأ: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فقد سبقت إلى الناس أقاويل وسمعوا أحاديث، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم. فدع الناس وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم». وقال الإمام أحمد بن حنبل[٦]: «من قلة فهم الرجل تقليده الرجال فى دينه». . لذلك فإن اعتبار اجتهادات الأقدمين مقدسة هى مخالفة صريحة لما دعى له أولئك الأئمة أنفسهم.

سوف نبين عدم شرعية التقليد وعدم جدوى المنطق الصورى الذى أدى إلى قيد معرفى على الاجتهاد. الاجتهاد ضرورة دينية مستمرة، ولدى أنصار الله الاجتهاد هو سنام الدين، فالمهدية لدى المدارس الإسلامية الأخرى مقيدة لدى الشيعة بسلسلة نسبية معينة، ولدى أهل السنة مقيدة بمواقيت إما إمامة القرن وإما آخر الزمان. أما المهدية لدى الإمام محمد المهدى فهى وظيفية، إنها وظيفة إحياء الدين كما أوضحنا فى رسالتنا عن الإمام عبد الرحمن المهدى فى ذكرى مرور قرن على مولده، والمهدية وإن كانت واحدة لما لها من مكانة روحية مكنتها من الدعوة لوضع نهاية للتمذهب المؤسس على منطق صورى، ومن تخطى الصور المعروفة للمهدية فإنها حركت دعوة وظيفية متجددة مع الأيام على نحو مقولة: **لكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال.**

الحاجة للاجتهاد وأدواته المشروعة

إن الأحكام التى اتفق عليها جمهور الفقهاء فى كثير من القضايا لا تلائم عصرنا؛ مما يوجب اجتهادًا جديدًا، كما أن نصوص ومقاصد الشريعة أوسع من الأحكام التى استنبطها الجمهور، مما يتيح المجال للاجتهاد الجديد والمتجدد أبدًا. . فيما يلى أبين

الحاجة للاجتهاد، وأبين أدواته المشروعة التي تستوعب الحاجة للتجديد، دون استلاب يخلص المريض من آلامه بقتله على نهج ما فعلت «البصيرة أم حمد!!»[٧].

أ- القرآن:

القرآن قطعي الورود، ولكن نصوصه ليست قطعية الدلالة. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران الآية: ٧] وقال: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة: ١٠٦] ووصف الإمام على آيات القرآن بأنها حمالة أوجه. وبيانا لذلك أستعرض المسائل الآتية:

هل يقول الإسلام بالجبر أم بالاختيار؟

الإنسان أهو مسير أم مخير؟ القائلون بالجبر استشهدوا بآيات مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ**﴾ [الإنسان: ٣٠] والقائلون بالاختيار استشهدوا بآيات مثل: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ [الإنسان: ٣].

● **وما هي درجة التقوى المطلوبة؟** قال تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦].

● **وهل تقبل التعددية الدينية؟** قال تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون: ٦] وقال: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [آل عمران: ١١٣: ١١٤] وقال: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

● وقال تعالى: ﴿**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ [الحج: ٧٨].

● وقال: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٤].

● وقال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠].

● ووصفت الذات الإلهية بصفات مماثلة للبشر. وقال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١].

● ووصفت الجنة بأوصاف مشابهة للمعهود فى الدنيا. وقال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧].

فهم هذه الثنائيات ـ وهى كثيرة ـ يوجب تفقهًا وتدبرًا على نحو ما حث عليه القرآن نفسه. قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: ٢٤] وقال: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا﴾ [الفرقان: ٧٣].

ب ـ السنة:

قليل من السنة قطعى الورود. وكثير منها ظنى الدلالة وفى الإحاطة بمعناها عقبات أساسية توجب اجتهادا كثيرا:

● النبى ﷺ منع تدوين أحاديثه، وإلا لكانت دونت مثلما دون القرآن، ولم يبدأ التدوين إلا بعد قرن من وفاة النبى ﷺ. إن الوهم والنسيان يدركان الرواية ما لم تدون.

● علم الحديث اهتم بالسند أكثر من المتن.

● تدوين الأحاديث فى الصحاح مبوب حسب موضوعاتها لا حسب تواريخ النطق بها.

● فى الصحاح ـ مثلا ـ الإمام البخارى[٨] يورد أحاديث عن أن القيامة سوف تقوم بعمر أصغر واحد من رهط حددهم. هذا ناقضه الواقع.

● فى الصحاح أحاديث تتناقض مع العلم، كالحديث عن الذكورة والأنوثة وأنه إذا غلب ماء الرجل كان ابنا وإذا غلب ماء المرأة كانت بنتًا. مع أن القرآن ينسب الذكورة والأنوثة لماء الرجل: ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى﴾ [النجم: ٤٥: ٤٦].

- وفى الصحاح أحاديث تتناقض مع القرآن ـ مثلا ـ حديث: «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه». وهذا يناقض قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧].

- وأحاديث ذات دافع سياسى واضح، كما ورد فى صحيح البخارى عن الصبر على ظلم الولاة؛ لأن من يأتى بعدهم حتماً أسوأ منهم. أو حديث ابن أبى بكرة الذى استشهد به فى الامتناع عن القيام مع السيدة عائشة بأنه قال: لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، وهذا الصحابى يعلم أن صحابة آخرين أكبر منه درجة قاموا معها. وهو على أية حال أحد ثلاثة حدهم للقذف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٩]، على اتهام المغيرة بن شعبة، أى لا تقبل شهادته بنص الآية المبينة لحد القذف كما بينا آنفا.

- صحيح الإمام البخارى[١٠] مقدم على سواه، ولكن الإمام البخارى اتخذ فى تمحيصه للأحاديث فقط جانب السند، فصنف سلاسل الرواة، وصحح ما صحح منها وصرف نظره عما سواها. ولا شك أن صحة السند هى إحدى وسائل التصنيف، ولكن كيف نضعها الوسيلة الوحيدة؟ إن ذلك يحجب عنا كثيرا من الحديث الحاوى لهدى النبوة؛ فقط لأن أحد الرواة مثلا مشهور بالنسيان أو يروى بالمعنى. كما أنه يدخل الكثير من الروايات المناقضة للقرآن وللواقع التاريخى المحقق وللعقل بدون أن يجرى عليها أى نوع من التدقيق والمراجعة.

آليات الاجتهاد

كان القياس والإجماع هما آليات الاجتهاد بالإضافة لآليات أخرى مختلف على حجيتها، القياس ليس محكما، لأنه لا يكون التشابه محكما أبدا، وكذلك الإجماع لم يتحقق اللهم إلا فى الأمور غير الخلافية. لا سبيل للخروج من محدودية المنطق الصورى هذا إلا بالركون لوسائل أخرى أجدى أهمها:

المقاصد: فلدى التعارض بين نصوص الجبر والاختيار فإن مقاصد الشريعة ترجح أن تكون آيات الاختيار هى المحكمة؛ لأن إنكار الاختيار يهدم مسئولية الإنسان عن أعماله وهذا يهدم الأخلاق.

الحكمة: فى كثير من النصوص يذكر الكتاب والحكمة، وهى ملكة متاحة للرسل ولغيرهم من البشر، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وجاءت فى القرآن إشارة للقمان الحكيم، وغالب الظن أن لقمان هذا هو أركمان أو أرقمان أحد ملوك مروى العظام، وهو يصور فى مقبرته بعين كبيرة تعبر عن الحكمة. قال تعالى: ﴿آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]. والأثر يقول: الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها.

المصلحة: يقول نجم الدين الطوفى: إن المصلحة مرجعية راجحة فى الشريعة؛ لأنها تنشد: لا ضرر ولا ضرار.

العقل: على حد تعبير الإمام الشاطبى[١١] فإن مطالب الشريعة لا تناقض مدركات العقول.

العدل: قال الإمام ابن القيم: كل ما تحقق به العدل هو من الشرع، وإن لم يرد به نص.

السياسة الشرعية: وهذه تمكن قيادة المجتمع الشرعية أن تتخذ سياسات لم يرد بها نص ولا قياس ولا إجماع، مثل ما فعله عثمان بن عفان رضى الله عنه من توحيد نص المصحف وإحراق النصوص الأخرى. وما فعله عمر[١٢] رضى الله عنه من عدم توزيع أرض السواد غنيمة للمجاهدين، وهلم جرا.

المعرفة: الاعتراف بالمعرفة التى يدركها الإنسان عن طريق العقل، والتجربة، والحواس، فى أمر الكتاب المشاهد أى الطبيعة التى فطرها الله على سنن وقال: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠: ٢١].

استخدمت هذه الوسائل فى اجتهاداتى، وكانت النتيجة طائفة من المؤلفات أذكر منها: العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الاجتماعى الإسلامى ـ جدلية الأصل والعصر ـ الدولة فى الإسلام ـ المرأة وحقوقها فى الإسلام . . . إلى آخر القائمة التى عبر كتب، ورسائل ومحاضرات، زادت عن مائة مداخلة فى كافة قضايا الفكر فى

الساحة . وقد رأيت أن أخرج هذا الكتاب، وفيه جماع ما بحثت فى كتبى وبحوثى الماضية فى أهم القضايا التى نحتاج فيها لمراجعات مفهومية وسياسية واقتصادية واجتماعية ودعوية وخارجية (أى ضبط علاقتنا بالخارج)، وأؤكد أن عافية حاضرنا ومستقبلنا رهين بتلك المراجعات التى تؤدى للصحوة الثقافية .

صحوتنا الثقافية

الصحوة الثقافية مرتبطة بالإصلاح الدينى، لأن الدين هو الأساس الثقافى لمجتمعاتنا . هذه الصحوة توجب الآتى :

١- حقائق الوحى مفصّلة فى القرآن وسنة النبى ﷺ . . القرآن قطعى ورودا، وبعضه قطعى دلالة، ومنه ما هو ظنى الدلالة . السنة القولية غالبا ظنية الورود، وكذلك ظنية الدلالة . المجتهدون الأقدمون تناولوا هذه النصوص، وقرروا بشأنها وفق اجتهاداتهم وعن طريق القياس والإجماع استنبطوا من النصوص المبادئ والأحكام للناس كافة . إن اتباع الخلف لاجتهادات السلف مطلب معرفى؛ لأن السلف إنما انطلقوا من الوحى المطلوب اتباعه تدينا . ولكن مصدر الوحى نفسه أنزل معه الحكمة، ومنحنا العقل البرهانى وأمرنا باستخدامه، وبصرنا بالمصلحة وأوجب علينا اعتبارها، ونفى عنا الحرج، وألزمنا باعتبار المقاصد، وخلق الطبيعة وأودعها سننا راتبة، وأمرنا اكتشاف تلك السنن؛ لأنها مفاتيح تسخيرها لنا . . هذه الحقائق تأذن بتمكين إنسانى كبير أراده الله للإنسان، فصار الامتثال لأمر الله يدخل فيه التسليم بعطاء الإنسان، وهو عطاء إيمانى، عقلى، تجريبى، وروحى، فالإنسان من الناحية الروحية أيضا ليس مجرد متلق لأن عنده مفاتح الإلهام: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ**﴾ [الحديد: ٢٨] . . الإسلام لله يستصحب ولا ينفى التمكين الإنسانى .

٢- المعرفة الإنسانية ليست مجرد تلقى نصوص الوحى وتوسيعها بالمنطق الصورى، إنما تشمل نصوص الوحى والتدبر فيها ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤] و ﴿**الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا**﴾ [الفرقان: ٧٣] . وتشمل المعرفة العقلية والتجريبية والإلهامية .

٣- وثقافتنا السائدة تفسر بعض النصوص القرآنية بأن الوحى قد أحصى كل شىء. هذا الفهم إذا سلمنا به معناه حجر حرية البحث العلمى فما علينا إلا استنباط الحقائق من النصوص. ومعناه نفى أية قيمة لعطاء الإنسانية الفكرى والعلمى؛ لأن هذا العطاء إما مطابق لحقائق الوحى المحيطة بكل شىء فهو فضول، وإما مناقض لحقائق الوحى فهو باطل. هذا الفهم أشار لبطلانه كثيرون على حد تعبير ابن عقيل، كما رواه ابن القيم: **«السياسة ما كان فعلا يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحى»**.

٤- وثقافتنا السائدة تجعل الأخلاق مستمدة من أوامر الوحى ونواهيه فحسب، مع أن القرآن والسنة أنفسهما يؤكدان أن للأخلاق أسسًا موضوعية أعلاها الإيثار، وأوسطها المعروف والمنكر، وأدناها المعاملة بالمثل. وفى الحالات الثلاث يترتب على الالتزام بها جزاء أخروى.

٥- وثقافتنا السائدة تفهم الولاء والبراء بصورة نافية للآخر الملى والدولى. منذ اجتهادات شهرها ابن تيمية[١٣] وحبرها أبو الأعلى المودودى[١٤] وسيد قطب[١٥] فى العصر الحديث، فإن آية السيف وضعت حدا فاصلا بين المسلمين والآخرين، وهى أساس الولاء والبراء. هذا الفهم لا مكان فيه لتسامح أو تعايش مع الآخر الملى أو الدولى إلا بموجب طاعتهم لنا. ولا تقوم العلاقة بيننا وبين دار الحرب إلا على أساس امتثالهم لسيادتنا على حد تعبير محمد الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة. ولكن هذه التفاسير ليست قطعية، بل هناك أسس تسامحية للتعامل مع الآخر الملى، ومع الآخر الدولى، وهناك آية ناصعة الوضوح فى هذا الصدد **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾** [الممتحنة: ٨].

إن خطر هذه المفاهيم الماضوية المنكفئة هو أنها جعلت اجتهادات بشر مثلنا مقدسة بقدسية الوحى وجعلت الامتثال لها طاعة لله مفروضة.

وهذه المعتقدات تتحول على يد الحركيين إلى مطالب يفرضونها على الآخرين ويكفرونهم إذا هم جادلوا فى صحتها.

منذ حوالى عامين من الزمان صغت أطروحة بعنوان «نحو مرجعية إسلامية متجددة» تطرقت فيها لاستحقاقات الصحوة الثقافية والإصلاح الدينى. ومنذ عام عرضتها على ورشة فكرية نظمتها هيئة شئون الأنصار ودعت إليها عدداً كبيراً من المفكرين والعلماء السودانيين تداولوها وكانوا بين مؤيد وناقد.

وبعد تفكر فى الموضوع رأيت أن أنشر ما استقر عليه اجتهادى، كما رأت هيئة شئون الأنصار تنظيم مؤتمر أهلى حر ودعوة علماء ومفكرين يمثلون كافة الطيف الفكرى الإسلامى السنى والشيعى والصوفى والمستقل للمشاركة فى اجتهاد جماعى.

السعى لتحقيق إصلاح دينى وصحوة ثقافية مطلوب بإلحاح، أولا لإيجاد مرجعية مشتركة حول أهم قضايا الساعة، وثانيا لأن غياب مثل هذه المرجعية يفتح المجال واسعا لاجتهادات فردية وحماسات حركية تخطف مصير المسلمين، وثالثا لقفل الباب أمام تدابير خارجية تحاول طمس هوية المسلمين.

المطلوب الالتفاف حول مرجعية إسلامية متجددة تجانب الغلو، وتقفل منافذ الغزو، وتفتح الطريق لأجندة إسلامية تدافع عن حقوق المسلمين بأسلوب يحقق مقاصد الإسلام لا الأساليب التى مهما حسنت نواياها تحقق عكس مقاصدها.

هوامش

١ ـ انظر مثلا كتابه Bernard Lewis The Roots of Muslim Rage . 1990

٢ـ جيمى كارتر (ولد ١٩٢٤) الرئيس الأمريكى فى الفترة ما بين ١٩٧٧-١٩٨٠م- الحزب الديمقراطى .

٣ ـ رونالد ريغان (ولد ١٩١١)- الرئيس الأمريكى فى الفترة ١٩٨١-١٩٨٨- الحزب الجمهورى .

٤ ـ صحيفة وول ستريت ١٥/ ١١/ ٢٠٠٣م'

٥ ـ مجلة بارا مترز خريف ٢٠٠٢م'

* أبو حنيفة النعمان(٨٠- ١٥٠هـ/ ٦٩٩- ٧٦٧م): ولد بالكوفة من اسرة فارسية، تعرض للسجن والتعذيب فى العصرين الأموى والعباسى . من الأئمة الأربعة .

٦ـ أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ/ ٧٨١-٨٥٥ م): هو أحمد بن حنبل بن هلال الذهلى الشيبانى المروزى البغدادى، أصله من مرو . ولد فى بغداد ثم رحل إلى الكوفة والبصرة والشام والحجاز واليمن طالبا للحديث، تفقه على الشافعى ثم اجتهد لنفسه، من تصانيفه «المسند» من الصحاح، من الأئمة الأربعة .

٧ ـ البصيرة أم حمد مثل شعبى سودانى يحكى عن قصة مفادها أن ثورا أدخل رأسه فى جرة من فخار (برمة) فاحتار الناس كيف يخلصوا كل من الثور والجرة فى نفس الوقت واستشاروا «حكيمة» تدعى أم حمد فقالت لهم أولا اذبحوا الثور، ولما ذبحوه لا زالت الجرة لا يمكن استعمالها لوجود الرأس بداخلها فقالت لهم: اكسروا البرمة . . وهو مثل يقال فى الحكمة التى تريد التوفيق بين شيئين فتبددهما جميعا .

٨ ـ البخارى (الإمام) (١٩٤- ٢٥٦هـ/ ٨٠٩- ٨٦٩م): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزدوبه البخارى الجعفى، إمام أهل الحديث وصاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخارى .

٩ـ عمر بن الخطاب (٤٠ ق . هـ-٢٥ ذو الحجة ٢٣ هـ/ ٥٨٢-٦٤٤م/ ١١/ ٣) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، العدوى القرشى .

١٠ـ البخارى (الإمام) (١٩٤- ٢٥٦هـ/ ٨٠٩- ٨٦٩م): انظر هامش : ٨ .

١١ـ الشاطبى (الإمام) (٥٣٨- ٥٩٠ هـ): هو أبو محمد القاسم بن فيرة بن أحمد الشاطبى الرعينى (نسبة إلى ذى رعين اليمنية) . ولد فى مدينة شاطبة بالأندلس وإليها نسبته .

١٢ـ عمر بن الخطاب (٤٠ ق . هـ-٢٥ ذو الحجة ٢٣ هـ/ ٥٨٢-٦٤٤م/ ١١/٣) انظر هامش: ٩ .

١٣ـ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣-١٣٢٨م): أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، وتيمية هى والدة جده الأعلى محمد، ولد بحران، وفى السابعة من عمره انتقل مع والده إلى دمشق هربا من التتار، وأثناء فتح عكا جاهد بسيفه ضد التتار . توفى مسجونا بقلعة دمشق .

١٤ـ أبو الأعلى المودودى (١٩٣٠- ١٩٧٩م): مؤسس الجماعة الإسلامية فى الهند عام ١٩٤١م ويعد من أكبر منظرى الحركة الإسلامية الحديثة .

١٥ـ سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦م): المفكر الإسلامى المصرى الشهير من جماعة الإخوان المسلمون . شغل عدة وظائف فى وزارة المعارف، وعمل فى الصحافة منذ شبابه، له مؤلفات عديدة، كتب فى النقد الأدبى، والشعر، والقصة، كتاباته بعد التعذيب تشكل مولد الحركة الإسلامية المتطرفة .

***